

الإيمان بكرامات الأولياء

[ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكافشات وأنواع القدرة والتأثيرات، والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة، وهي موجودة فيها إلى يومنا] . (الشرح)* قوله: (ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات...): الولي: مشتق من الولاء الذي هو الموالاة، بمعنى القرب أو التقرب والمحبة. وقد ذكر الله أنه ولِيَ الْمُؤْمِنِينَ {آل عمران: 68} وقال تعالى: {وَاللَّهُ ولِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: 257] فهو ولهم وهو مولاه، وقال تعالى: {ذَلِكَ يَأْنَى اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد: 11]. وذكر أن المؤمنين أولياء الله، قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلَيَاءَ اللَّهِ لَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: 62] فأولياء الله هم أهل طاعته، وأهل الإيمان به، وأهل تقواه حق تقواته، وهم الممتلون لأمره، المبعتون عن نهيه، المحبوون لطاعته. فالله تعالى وليهم وهو كذلك عدو من عادهم: قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه في الحديث القدس: {قال الله تعالى: من عادي لي ولها فقد أذنته بالحرب} {آخر جهاد البخاري برقم 6502} في الرقاقي، باب: "التواضع". عن أبي هريرة رضي الله عنه. فولي الله هو القريب منه الذي يجبه وينقيه حق تقواته، هذا هو ولها الله. وأولياء الله تعالى قد يجري الله على أيديهم خوارق للعادة، ويسنمها العلماء كرامات؛ إما إجابة دعوة في الحال، وإما رزق يرزقه إياه غير سبب ظاهر، إما نجاة من هلاك محقق أو غير ذلك مما هو خارج عن قدرة البشر. وقد ذكر لذلك أمثلة في القرآن، ومن ذلك ما ذكر الله تعالى عن أهل الكهف، فإنهما ليسوا بأنياء ولكن وقع لهم كرامات: فأهل الكهف الذين ذكر الله أنهم فتية آمنوا بهم، ورددوا الله هدى، وربط على قلوبهم، ومن ذلك ما ذكر الله على آذانهم سنين عدماً ثم أحياهم. وهذه معجزة وكراهة، فقد لبتو في كهفهم ثلاثمائة وتسعمائة وسبعين ثم بعثوا، فلم تتغير أبشرتهم بل طلوا باقين على هيئتهم، ولم كرامة الله لهم أنه كان يقليلهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا تأكلهم الأرض، وكان معهم كلهم ياسطا ذراعيه بالوصيد، يعني بباب الكهف، ضرب الله على آذانهم الأرض، فمن كرامات الله لهم أنه كان يموت حقيقى، وبعدما بعثوا اعتقدوا أنهم ناما يوماً أو بعض يوم، ثم أرسلوا من يأتيهم بالطعام، فعشوا أهل الكهف عليهم رجعوا إلى مصاجهم ومانوا. فغلوا بهم قاتلوا على مأثرهم لتنجذبَ عَلَيْهِمْ قَسْدًا} [الكهف: 21] وذلك من باب الغلو في الموتى وفي الأولياء. ومن الكرامات ما ذكره الله عن مريم وليس بيته وإنما هي صديقة، قال تعالى: {كُلُّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَرْكَرِيَا الْمُحْرَاجَاتَ وَجَدَ عِنْدَهَا يَرْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنِّي لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ شَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 37]؛ وذكر أنه وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهه الصيف في الشتاء وهذا من كرامات الله لها. وأما في هذه الأمة فقد جرى كثير من الكرامات لكثير من الصحابة وكثير من الكرامات ما ذكره الله في كتابه، وحدثت لهم عجائب الأمور التي قد تُذَكَّرُ بها ويستغربها من لم يؤمِنْ بقدرة الله وبكرامته لأوليائه. فمن ذلك أن أبي مسلم الخوارقي أحد أجيال التابعين ألقى في النار، أحرقه الناس في ولادة العنسى، فصارت النار عليه برداء وسلاماً، كما كانت على إبراهيم أي خمدت النار لما ألقى فيها، وليس هو نبياً، وإنما هو ولد الإمام فاجاب الله دعوته، وحماه من كيد أعدائه. ومن ذلك أن العلاء بن الحضرمي غزا مرة جهة البحرين وحال بينه وبين العدو بحر أو نهر، فأراد أن يدرك العدو، فخاض هو ومن معه على خيولهم، فجعل الله البحر شبه البيس، فصاروا يمشون فوقه ولم يغرقوا، ولم يفقدوا من متابعتهم ولا من دوابهم شيئاً، وهذه كرامة لأولياء الله تعالى. وكذلك وقعت كرامات لعمر بن الخطاب ومكافشات، فاشتهر بأنه قال لرجل ما اسمك؟ قال: ابن من؟ قال: ابن شهاب. قال: من أي القبائل؟ قال: من بني ضرام، فسألته أين يسكن؟ قال: بحرة النار فقال: ارجع إلى أهلك فإنهم قد احترقوا، فوجد الأمر كذلك، كأنه استبيط ذلك من اسمه واسم أبيه وقبيلته ومسكنه: الحمرة، والشهاب، والضرام، وحرة النار، كذلك ذكرها أنه رضي الله عنه كان مرة يخطب، وفي أثناء خطبته تكلم بكلام لا يدركون ما سببه، وهو أنه أخذ يقول: يا سارية الجبل، وكان هناك سرية في الشام تقاتل عدوها في تلك الساعة وقت الخطبة، وقادها يقال له: سارية، وهناك جبل أمامهم، فناداهم أن يعتصموا بالجبل ويعملوا خلف ظهورهم، ويفاتلوا الأعداء من أمامهم، فلما قال لهم رجعوا إلى الجبل وقاتلوا الأعداء وانتصروا، وذكر أنهم لما رجعوا متصرلين سأله عن ذلك فقال: خطر باليه شيءٌ فنيطقت به. فهذه بعثت من الكرامات. ومن كرامات الله لثمانين ذي التورين رضي الله عنه أنه لما قتل، وقعت أولى قطارة من دمه على قوله تعالى: {قَسْتِيَكَفِيَكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: 137]. ولما قرأ ابن عباس قول الله تعالى في سورة الإسراء: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا قَلَّا يُشَرِّفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُنْتَصِرًا} [الإسراء: 33] قال ابن عباس إن معاوية ومن معه منصوروه، لأنهم يطالبون بدم عثمان ولأنهم أولياؤه فإنهم منصوروه، فتحقق نصرهم عند قتلة عثمان وتحقق قول ابن عباس رضي الله عنهما. وأما إجابة الدعوات فهو أمر مشهور يجل عن الحصر، ومن ذلك كانت تسير مرة من سعيد بن زيد رضي الله عنه حينما ادعت امرأة أنه أخذ شيئاً من أرضها فقال: اللهم إن كانت كاذبة فاقتها في أرضها فاستجاب الله دعاءه، فقد كانت تسير مرة في أرضها فعشرت فوقت في بئر فكان حفتها. وباب كرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات باب واسع وقد صفت في ذلك المؤلفات والأسفار، إلا أن الغلو والشطط والبعد عن أصول وضوابط منهج أهل السنة والجماعة كان السمة الغالبة على كرامات الشرعية، وفَرَّقَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله في كتابه: "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" وكذلك في كتابه: "النبوات" فقد ذكر ضوابط الكرامات الشرعية، وفَرَّقَ بينها وبين أعمال السحر والمشعوذين، وأن أهل الكرامات الشرعية هم من المؤمنين المتقين، أما السحراء وأهل الشعوذة فهم من الأفakin المجرمين. وذكر أيضاً رحمة الله أمثلة كثيرة من كرامات كثير من السلف رحمهم الله. وكذلك ابن رجب البغدادي رحمة الله في كتابه "جامع العلوم والحكم" يذكر كثيراً من هذه الكرامات التي جرت لأولياء الله من إجابة الدعوات وتغريق الكريات، ونحو ذلك. ذكر ذلك عند شرحه لحديث: {مَنْ عَادَيْتِ لَيْ وَلِيَ فَدَ بَارِزَتْهُ بِالْحَرَبِ} آخر جهاد البخاري برقم 6502 في الرقاقي، باب: "التواضع" عن أبي هريرة رضي الله عنه وكذلك عند شرح قوله صلى الله عليه وسلم في حديث عمر {أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَائِنَ تَرَاهُ} آخر جهاد مسلم برقم 8 في الإمام، باب: "الإسلام والإيمان والإحسان". وغير ذلك من الأحاديث. وفي غير هذا الكتاب أيضاً كالمحجة في سير الدلجة وغيره. ولابن القيم رحمة الله أيضاً إشارات لهذا الكتاب في كتابه، مدارج السالكين". فهذه كرامات الأولياء دعواتهم، وقد ألفت فيها مؤلفات للفرق بينها وبين معجزات الآباء وبينها وبين ضابط المعجزة وصوابيتها الكراهة، وأن الكراهة تجري على يد إنسان صالح مستقيم، وأن الله تعالى يجرها له في تلك الحالة لكرامته ومحبته وإخلاصه في اللجوء إليه عند الشدة وغيرها. ولكن ذكرها أن الكراهة لا تدل على الرفع المطلقة، فقد يوجد كثير من التابعين جرى لهم كرامات أكثر من الصحابة، وذلك لا يدل على أنهم أفضل من الصحابة. قال بعض العلماء: إن الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؛ لأن الصحابة ليسوا بحاجة إلى هذه الخوارق لتقوى إيمانهم، بخلاف التابعين، فإن الناس في زمنهم كانوا بحاجة إلى ما يقوى إيمانهم، فأجرى الله على أيديهم كرامات كثيرة لتشييع هؤلاء الناس على دينهم ولزيادة إيمانهم. وذكر العلماء أيضاً أن الكراهة قد تجري على يد صاحبها وهو لا يشعر، فقد يتجاب دعوته وهو لا يشعر، وقد يدعوه على من لا يستحق الدعاء في مجال، فقد ذكر ابن رجب أن الحسن الصرسى كان له ديك يوقفه قبل صلاة الفجر، فلم يصح يوماً، فتأخر الحسن عن الصلاة ثم قال عن الديك: ما له آخرسه الله!! فما صاح بعد ذلك ألبته، فقالت له أمه: يا بني لا تدع على شيء بعد ذلك أبداً. وكذلك فإنه ليس من شرط الولى أن يكون مجاب الدعوة دائماً بل قد يمنع ما أراده. وذكر ذلك ليس كل من جرت على يديه الكراهة استحق أن يكون ولها، فلا يليلى فوق طوره، كما يفعل الغلاة الذين إذا اشتهر عندهم أحد المتصرفه الذين يسمونهم أولياء وهم غلو فيه، ورفعوه عن قدره، وعبدوه أو كانوا أن يعبدوه، وعظموه تعظيمًا غير مناسب، ثم أخذوا يكتبون عليه أكاذيب ليس لها أصل، ويزعمون أنه قال وأنه فعل، وتلك إما أن تكون كرامات له، وأما أن تكون أكاذيب. فمن ذلك ما فعلوا مع عبد القادر البغدادي ولا شك أنه من الصالحين ومن خيار أولياء الله، وله كرامات، ولكن لما غال فيه المتأخررون، ولدوا عليه أكاذيب، وزعموها كرامات، ومن ذلك أنهم زعموا أنه قُرُبَ إِلَيْهِ مَرَةً كَبِيسٍ مُشَوِّي، فأكل منه هو ومن معه، ولما أكلوا لحمه وبقيت عظامه قال للكبش: قم يا كبيش يا ذن الله، قالوا: فقام الكبش حيا ينفص شعره. ولا شك أن الله قادر على إجابة دعوته وإحياء هذا الكبش، ولكن يغلب على هذه الحكاية أنها مكذوبة؛ إذ لا فائدة من طلبه هذا في ذاك المقام إلا ما يكون من فتنة الناس به وغلوهم فيه. وكذلك الأكذوبة الأخرى التي هي أعظم منها، وهي أنه جاءته امرأه وقالت: إن ابني مات، وليس لي ابن غيره، وإنه وحدي، فادع الله أن يحييه، وأن يرد إليه روحه، قالوا: ثم إن عبد القادر طار في الهواء، فأدرك ملك ملوك الموت وهو بين السماء والأرض، وقد قبض أرواحاً كثيرة وجعلها في زميله معه، فقالت: يا ملك الموت رد روح الصبي. فقال: لا أردها فقال: ردها وإلا أخذتها منك، فأخذ منه الزميل، ورجعت الأرواح التي أخذها، فعاش حيا كل ميت مات في ذلك اليوم. وهذه أكذوبة من أقبح الأكاذيب. فالحاصل أنه ليس كل ما يلتفق على من يقال إنه ولبيه صحيحاً، ونحن نصدق بقدرة الله تعالى ولكن الذين غلوا زادوا في التلقي على الأولياء ما ليس له أصل. وعلى كل حال فالله تعالى يُجري على أيدي أوليائه كرامات، وبأثائهم بمكافشات، ويكشف لهم شيئاً من أسرار الغيب، وبطليعهم على بعض الأمور المستقبلية، وذلك من باب كراماتهم ورفعة مقامهم، ولا يدل هذا على أنهم وصلوا إلى حالة صاروا فيها أرفع من الأنبياء، كما يدعى ذلك غلاة الصوفية، فإن المتصوفة لما اعتقدوا في الأولياء رفعوهم عن الأنبياء، ورفعوا الأنبياء عن الرسل، فجعلوا أعلى المقامات مقام الولى ثم يليه النبي، ثم أنزلها الرسول. وفي ذلك ما حکاه عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية أنهما كانوا يقولون في نظمهم: مقام النبوة في يرث فويق الرسول دون الولى وهذا كذلك، فالولي مهمماً كان ومهماً وصل، لا يصل إلى مرتبة الأنبياء فضلاً عن مرتبة الرسل. ثم نصدق أيضاً بما قد يجري على السنة المشعوذين والسحراء وأولياء الشياطين من شعوذة وأحوال شيطانية، إلا أنها لا تدل على أنهم أولياء لله، وإنما ذلك من آثار خدمتهم للشياطين ولمردة الجن، فإنها تلبس على الناس، وتظهر لهم هذا الإنسان في قالب المتصرف في الأشياء. وهذا ونجوه يسمى الأحوال الشيطانية؛ ولأجل ذلك يقول سفيان الثورى إذا رأيت إنساناً صاحب هوى، يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، فلا تفتر به حتى تعرض أمره على الكتاب والسنة، فإذا عرفته عامله بالشرع ومطبيقاً له، فاعلم أن ذلك كرامة، وإنما هي أحوال شيطانية.